الملتقى الوطني حول التواصل الحضاري بين الجزائر و بلدان الساحل الافريقي بين القرنين 16-19

بيانات شخصية

الاسم و اللقب: مصطفى لمين لعويد

الرتبة: ماستر تاريخ مغرب عربي حديث و معاصر

التحضير: دكتوراه ل م د 2016 أول سنة تسجيل تحت **إشراف** أ.د محمد السعيد عقيب

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

معلومات التواصل

الهاتف : 0780619380

إيميل :laouid-lamine@univ-eloued.com

العنوان : حي الهود قمار ولاية الوادي

عنوان المداخلة : العلاقات الاقتصادية بين الجزائر و دول الساحل الإفريقي بين القرنين 16-17 و دورها في تفعيل التبادل الثقافي .

المحور الأول: مظاهر العلاقات بين الجزائر و دول الساحل بين القرنين -16-19

مقدمة:

تعد دراسة العلاقات التجارية بين دول المغرب العربي وإفريقيا جنوب الصحراء أحد أهم المواضيع التي تحظى بإهتمام واسع لدى الباحثين و المؤرخين، غير أن العديد من الجوانب في هذا الموضوع لازالت تعرف نقصا كبيرا ومنها التأثير الحضاري للتجارة ودورها في تحقيق التبادل الثقافي،وما مدى تأثير التجار في الحياة الإجتماعية و الثقافية سواء في السودان الغربي أو الجزائر، وهو ما سنجعله منطلق للإشكالية التي سندرسها في هذا الموضوع .

إن التاريخ الطويل للعلاقات التجارية ساهم في نشأة عدة مظاهر و معالم حضارية كان لها أثر كبير في تاريخ العلاقات الجزائرية مع دول الساحل الإفريقي، جعلت منها محورا للسياسة المنتهجة بين البلدين خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر وهي الفترة التي تعنى بها هذه المداخلة ، وقد قسمنا موضوعها إلى أربع عناوين رئيسية وهي: أولا تطور العلاقات بين البلدين ، وثالنيا أهمية الاقتصاد في التبادل الحضاري والثقافي بين الجزائر ودول الساحل ثالثا دور التجار في الحياة الثقافية الإفريقية ورابعا دور الجزائريين في الدفاع عن دول الساحل من الغزو الأوروبي.حاولت خلالها رصد أهم الجوانب التي ساهمت العلاقات التجارية في ربطها بين المنطقتين.

ومن خلال تتبع مصادر و مراجع الموضوع وقفت على عدة كتابات مهمة تناولت مختلف الجوانب منها كتابات عبد القادر زبادية ، و مبروك الهادي الدالي، وغيرهما من المحققين الذين كان لهم أثر بالغ في إحياء الدراسات الإفريقية، وتوجيه الإهتمام بالجانب الحضاري للعلاقات، مؤكدين على الصلات و الروابط المشتركة رغم تشويه المستعمر لصورتها.

و في الختام أشكر كل من قدم لنا يد العون في إظهار هذا الجانب التاريخي من العلاقات الجزائرية الإفريقية، راجين من الله أن يلهمنا التوفيق و السداد.

– تطور العلاقات الاقتصادية بين الجزائر ودول الساحل الإفريقي

تعد العلاقات بين الشمال الإفريقي ودول الساحل ضاربة في القدم فلم تمنع الحواجز الطبيعية والمتمثلة أساسا في الصحراء من تحقيق هذا التواصل، فشهدت هذه العلاقات تطورات عديدة ساهمت العديد من العوامل والظروف في تأسيسها، بداية بالتغيرات المناخية والجيولوجية للأرض والتي ساهمت في هجرة الإنسان إلى حواف الصحراء بحثا عن الكلأ والماء[1]،بينما عرفت أولى الرحلات منذ 1000 ق م على ظهور الثيران ثم على عربات تجرها الخيول ومع ظهور الجمل الأليف المدجن حوالي القرن الرابع في شمال إفريقيا ساهم باعتباره وسيلة تنقل قادرة على اختراق الصحراء في تعزيز هذه الروابط وتطوير القدرات التجارية وبحلول العصور الوسطى سارت قوافل تضم 40.000 ألف جمل تحمل الملح من تادوني إلى تمبكتو قاطعة 435 ميلا[2].

شهدت المنطقة الشرقية والشمالية للصحراء أواخر القرن السابع للميلاد، تغيرات سياسية وثقافية تمثلت في ظهور دعوة الإسلام وصل تأثيرها لهذه المنطقة مبكرا بداية بهجرة الصحابة الأولى لملك الحبشة، حيث بدأ الامتداد الأفقي للإسلام عبر إفريقيا الشرقية، كما ساهم انتشار الإسلام في شمال إفريقيا منذ فتح عقبة ابن نافع ووصوله لسجلماسة في بداية الامتداد العمودي، وبذلك بدأت صلات العرب المسلمين الأولى بالسودان الغربي عن طريق الحملات العسكرية، فقد استطاع القائد عقبة بن نافع الفهري في عام 62هج/ 682م من توجيه حملة عسكرية إلى الحافات الشمالية للصحراء الغربية والتي تعد المعبر الذي يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي كما تبعتها حملات أخرى ومنها حملة القائد موسى بن نُصير إلى وادي درعة في السودان الغربي، حيث مكّنت هاتان الحملتان من التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها من قبائل صنهاجة وفي القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد قاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع حملة عسكرية في أيام ولاية عبيد الله بن الحجاب على المغرب (116-123هج) وصلت إلى مناطق السوس الأقصى وأرض السودان[3] وهو ما يفسر إشارة أحد النظريات لأصول قبيلة الهاوسا أنهم من أبناء العرب الذين أرسلهم عقبة ابن نافع للسودان الغربي. وكذا الأصول العربية لقبائل الفولان مما يعزز فكرة التداخل العرقي

وبالإضافة لما سبق شهدت منطقة السودان الغربي ظهور الممالك الجديدة حيث أسست قبائل السونينك مملكة غانا أو مملكة واغادو حيث نجد أن هذه القبائل تعرضت لهجرات من البربر منذ القرن الرابع للميلاد وحدث بينهم اختلاط عرقي ولغوي ساهم في تأثر البربر بلغة الماندي فبلغت هذه المملكة أوج ازدهارها بين القرنين العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر للميلاد[4]

ويرى بعض الباحثين أن تسمية غانا أطلقها عرب شمال افريقيا على هذه المملكة نظرا لأنها كانت غنية بالذهب وهو ما يظهر إعجاب سكان شمال افريقيا بالتجارة السودانية[5].

ومع انقسام المغرب العربي بعد سقوط دولة الموحدين اثر هزيمة حصن العقاب سنة 1212 إلى ثلاث دويلات شكلت البنية السياسية للمغرب الأوسط، حيث لعبت العاصمة تلمسان همزة الوصل بين الدولتين الحفصية و المرينية، إضافة لامتدادها التبادلي نحو الجنوب، و ذلك نظرا لطبيعة العاصمة التي تتميز بخصائص تجمع بين التل و الصحراء، و كذا البنية الاجتماعية و الاقتصادية لسكانها، حيث عرفت التجارة تطورا كبيرا في هذه العاصمة(5).

وتعد القصور الجنوبية للجزائر أهم المحطات التي ربطت بين ضفتي الصحراء، حيث ساهمت هذه القصور في تنمية تجارة القوافل عن طريق توفير محطات الراحة و الأمن للقوافل، و كانت في ذلك مدعومة بتأثير القوى السياسية التي شجعت التجارة الصحراوية معتمدة على عامل الجغرافيا من حيث الموقع الوسطي والرابط و وفرة المياه(6) كما أن ظهور قبائل قوية شكلت العمود الفقري لحماية القوافل المتوجهة نحو بلاد السودان ساهم في تحرير هذه التجارة و بعثها ومن أهم هذه القبائل التوارق و الشعانبة و الخنافسة (7)

فتشكل بسبب توفر هذه العوامل و الروابط مسارات القوافل و التي تعرف بالطرق التجارية، ففي الناحية الغربية للجزائر طريقين رئيسيين ينطلقان من تلمسان و هما:

1- طريق تلمسان إلى تازة ثم فاس و منها إلى تادلا إلى شعب الصفا ثم تقريش ثم سجلماسة و منها إلى بلاد السودان الغربي

2- طريق تلمسان إلى توات عبر وادي مفروش إلى سبدو حيث يتجه للسودان الغربي مباشرة

وقد اشتهرت تلمسان بتجارتها الصحراوية من خلال مبادلة ما تنتجه من حبوب و فواكه ليتم توريدها إلى غينيا حيث يذكر مرمول في وصفه لسكان تلمسان:<< ..أهلة بأقوام شجعان، المدن قليلة في هذه المملكة لقلة الأراضي الجيدة، لكن ما يوجد منها حسن الموقع، وعيشة سكانه مشرفة يتعاملون معاملة حسنة وفق عادات البلاد، و يتجرون كثيرا سواءا في غينيا أو نوميديا....>>[6]

أما الناحية الشرقية فقد عرفت عدة طرق تجارية وهي :

1- طريق ورقلة والذي يمر عبر فرعين رئيسيين أولهما إلى غات ثم أحير، في مسيرة 73 يوم و تعد هذه المرحلة أصعب مرحلة حيث تصارع القافلة الكثبان الرملية، بعد أحير تنتقل مسيرة 7أيام إلى أغادس وهي طريق خالية من الماء وعند وصول القافلة تدفع الضرائب لملكها ومنها تنطلق إلى دامركو الواقعة في منتصف الطريق من مقاطعة بورنو، و منها تقطع نفس المسافة إلى كاتشنا ثم إلى العاصمة ساقاطو ثم إلى كانو التي تعد الوجهة التجارية للقوافل الورجلانية، و هي تبعد ساقاطو مسيرة 5 أيام أما الطريق الثاني فهو يمر عبر القليعة مسيرة سبع أيام ، ثم إلى عين صالح و منها إلى تمبكتو في مرحلة عسيرة جدا مع رياح الجنوب، و في تمبكتو تنقسم القافلة منها ما ينطلق إلى هوسة في آخر نهر النيجر و ذلك للتوجه لسقاطو و نوفي، اما الجزء الثاني فيسلك طريق أحير السابق[7]

2- طريق تقرت و هو يمر إلى الفيض ثم كوينين بالوادي و منها إلى البئر الجديد فغدامس ثم إلى غاط فتمبكتو

3- طريق الوادي الذي يتجه مباشرة إلى غاط و منها يسلك نفس المسالك السابقة [8]. أو يسلك طريق غدامس رغم قلة استعمال هذا الطريق بالنسبة لتجار الوادي نظرا للصراع التجاري الشديد مع تجار غدامس

- **أهمية الاقتصاد في التبادل الحضاري والثقافي بين الجزائر ودول الساحل**

لقد ساهم نشاط الحركة التجارية بين الشمال و الجنوب في ترقية العلاقات الحضارية و الثقافية و بروز العديد من المظاهر العلمية و الأدبية في افريقيا، إضافة لانتشار فن العمارة المغربية، و هذا التبادل في حقيقته لم يكن في اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب فقط، لكن نجد أن سكان الجزائر أيضا تأثروا بالكثير من المظاهر الافريقية في معيشتهم.

إن تجارة العبيد كانت تجارة رائجة جدا في القرنين 16 و 17، حيث كان يصل من تقرت لوحدها بين 400 و500 عبد سنويا بسعر يتراوح بين 150 و200 فرنك و يرتفع سعره بالشمال نظرا لتزايد الطلب عليهم فهو يصل إلى 500 فرنك في الحالة العادية و قد يصل سعر العبد الممتاز حسب الشروط المطلوبة إلى 5000 ريال بوجو ما يعادل 3000 فرنك.

إن امتلاك العبيد لم يعد عند البيوت الجزائرية مجرد حاجة لأداء الخدمة ولكن صار يعبر عن مظهر لمدى رفاهية المالك و ثروته و هو ما جعل الجزائريين يمتلكون للكثير منهم في بيوتهم. كما ساعدت الصفات الأدبية و الأخلاقية للجارية الافريقية بأن سمح لها ان تكون ضمن شروط مهر أي عروس جزائرية[9]، و تفضيلهن على الأوربيات اللاتي يشتهرن بالخيانة و السرقة في الوسط النسوي الجزائري، و من خلال السجلات الشرعية يتضح أن انتشار الأفارقة في مواريث الجزائريين له بعد اجتماعي كبير كما يوضح مدى انتشار هذه الفئة في الوسط الجزائري وهو ما جعل الكثير من هؤلاء ينقلون ثقافاتهم و سلوكاتهم الاجتماعية، و تشير المصادر أن المعاملة الحسنة للعبيد ساهمت في اعتناق معظمهم للاسلام . خاصة أن الفئة التي تجلب للجزائر هي التي تعرضت للأسر ضمن الحروب بين القبائل في السودان الغربي، و كلهم من الفئة الغير المسلمة.

إن التجارة السودانية ساهمت بشكل فعال في إدخال عدة أنماط جمالية على اللباس و العتاد، و يعد استعمال التبر السوداني أحد أهم هذه الموارد التي استعملت في تطريز الثياب و حياكة المفروشات الباهظة الثمن ونقش السيوف و الأواني، حيث يشترى الغرام الواحد من التبر بسعر متوسط يقدر ب4.2 فرنك بينما يباع في السوق الجزائرية ب11.70، وقد شكلت تجارة التبر التجارة الأكثر شيوعا حيث يتم مبادلتها لمعظم المنتجات الجزائرية من تمور و قمح و شعير و زيوت، كما كانت تجارة الملح نحو السودان تتم بتبادله بالذهب الافريقي نظرا لافتقار المنطقة لهذه المادة الأساسية في الغذاء[10]، كما كان الجزائريون خاصة من تلمسان يحصلون

على الذهب الافريقي من خلال بيع الكتب حيث تتم مبادلة الكتب بالذهب نظرا للاقبال الشديد للافارقة خاصة في المراكز العلمية مثل تمبكتو على دراسة الانتاج العلمي من شمال افريقيا[11] .

أما تجارة العاج التي عرفت أقل إهتمام نظرا لصعوبة الحصول عليه و كذا صعوبة حمله إلا أن الوافد منها يستعمل للزينة و يصنع منه قبضة السيف، و بعض الأواني و غيرها من الاستعمالات، وقد كان العاج يتم الحصول عليه عن طريق إقتطاعه من أنياب الفيلة ويباع القنطار منه بسعر600 فرنك أما سعر شرائه فلا يتجاوز 50 فرنك. وهذه البضاعة لا يمكن توفرها في الجزائر إلا من افريقيا الغنية بالفيلة، ومن بين الحياوانات التي كانت تعطي بضائع مهمة الهررة البرية و التي يقوم الأفارقة بتهييجها ليستخرج منها العرق الخاص بها، و يسمى الزبد حيث يجمع في إناء و يشتريه سكان الواحات ب19 فرنك و يصل للسوق الشمالية ب80 فرنك أو عن طريق مبادلة أربعة قناطير من القمح، و يستعمل الزبد في صناعة العطور و التجميل، كما يستعمل للتداوي من بعض الأمراض.

وقد راجت بالإضافة لما سبق ذكره عدة منتوجات دخلت على المجتمع الجزائري من افريقيا، وهنا يمكننا أن نقول و بغض النظر عن المضار التي تسببها بعض المواد مثل الحشيش المخدر الإفريقي، إلا أنه كان يشكل أحد عناصر التجارة الرائجة، ونذكر أن مما ذاع صيته في أنحاء شمال افريقيا التكروري، و الحشيش الأحيري حيث قدرت الواردات ب2000 حمولة بعير سنويا.[12]

– دور التجار في الحياة الثقافية الإفريقية

لقد كان التجار أول الفاتحين لافريقيا الغربية و ذلك من خلال ابرازهم كمسلمين للخصال و المعاملات الحسنة، و كان من أثر ذلك على الافارقة تأثرهم الشديد بهؤلاء التجار الدعاة، ومما ساهم في سهولة مهمة هؤلاء التجار أسبقية العربية لهذه المنطقة حيث سمحت اللغة بتفعيل وسيلة التواصل، وقد خلفوا العديد من المظاهر المادية و الثقافية في افريقيا تمثلت في العديد من الأحياء المغاربية، و ظهور المعمار الذي يشابه المعمار في شمال افريقيا في نقوش المساجد و شكل القباب و المحاريب.[13]

ويعد ظهور مهنة الوراقين أحد المظاهر التي أضيفت للحياة الثقافية في بلاد السودان بسبب رواج تجارة الكتب التي عرفت إقبالا شديدا من الأفارقة[14]، ونتيجة لظهور هذه الحرفة فقد ظهرت العديد من الحرف المرتبطة بها كالخطاطين و النساخ حيث أبدعوا في

تزيين و تجميل الخط العربي عموما و المغربي خصوصا، وهو ما يفسر انتشار هذا الخط في المخطوطات النفيسة في خزائن الكتب و المراكز العلمية الافريقية[15].

ساهمت حركة التجارة في سهولة عملية الإنتقال للعلماء و الشيوخ لنشر الإسلام، ورغم وصول اللغة العربية للبلاد السودانية مبكرا إلا أننا نجد أن هؤلاء الشيوخ و العلماء ساعدوا في ترسيخها، وقد لاحظ احد الرحالين أن منطقة الجولف سنة 1506بها ملك و سكان مسلمين، وكان لديهم شيوخ بيض من أئمة الإسلام و دعاته لتعليمهم الدين و اللغة العربية[16]، وتعد الآجرومية أحد أهم المتون التي يأخذها الطلبة الصغار عند لزومهم لشيخهم ، إن النظام التعليمي يأخذ شبها كبيرا لما عليه في شمال افريقية و ذلك من خلال أخذ أهم المتون المالكية [17].

ويعد انتشار المساجد و الكتاتيب و المراكز العلمية التي قامت على أيدي المغاربة تدريسا و منهاجا نتيجة لانتشار التعليم الديني و اللغوي مشكلا بذلك حركة علمية ظهرت آثارها في تكون مراكز علمية في منطقة السودان الغربي وهو ما يؤكده عبد القادر سيلا حيث يذكر أن التعليم في منطقة السنغال كان يقوم على تبادل ثقافي مع شمال افريقيا ، وهو ما ساهم في تأسيس مراكز علمية مثل مركز مدينة فوتا و مركز قرية بير.

ومن الآثار الحضارية للتوسع التجارة البرية انتقال الكثير من العادات الغذائية و الأعراف من الجزائر لدول افريقيا جنوب الصحراء وهو نتيجة لانتقال السلع كالقمح و الشعير و التمور، أو انتقال الزراعة مثل أشجار الليمون و البرتقال، ويشير دينيس بولم أن التمازج و التشابه الإجتماعي بين سكان التوارق في الجزائر وقبائل التيدا في التيبستي من جهة وقبائل المورس في التاجانت و عرب الواحات[18] يؤكد على ارتباط إجتماعي و ثقافي كبير يعكس مدى الإتصال الوثيق بين هذين الشعبين .

و إضافة لما سبق ذكره فقد أخذ سكان السودان الغربي اللباس المغاربي فنجد أن القميص الواسع الصدر المطرز عند حواف الرقبة يعتبر من الألبسة الجزائرية في منطقة الصحراء إضافة للقلنسوة المطرزة وقصيرة حيث لاحظ عدد من الباحثين الإجتماعيين تشابهه مع لباس بعض قبائل السونجي الذين يقيمون في منطقة النيجر الوسطى حيث كان أرتباط أهالي هذه المنطقة بمنطقة القيروان عبر

الصحراء الجزائرية وثيقا منذ القرن الثالث هجري حيث انتقل لمنطة الحوض الأوسط لنهر النيجر الكثير من العلماء المالكيين و الشيوخ عبر القوافل التجارية و قد استقر الكثير منهم في منطقة كوكو[19] .

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الأفارقة أخذوا عن سكان شمال إفريقيا التقويم خاصة التقويم الزراعي وبعض العادات الخاصة باستقبال فصل الربيع، كما عرف سكان السودان الغربي التقويم الهجري و تقسيم الشهور العربية. وقد سجلت خلال ذلك المكاتبات و القروض و غيرها من المعاملات التجارية وفق هذه التقويمات، حيث بدأ العمل رسميا وفق النظام العربي منذ بداية القرن السادس عشر.

ومما ساهم الجزائريون في نقله لسكان افريقيا العديد من العادات و المظاهر التي تعبر عن شكل من المظهر الحضاري مثل استعمال الموائد و الصواني النحاسية المنقوشة، و استعمال الملاعق المصنوعة من خشب شجرة الجوز.

ومن خلال ما تقدم فإن التجارة بين الضفتين قد كانت تشكل الأساس الرئيسي للتبادل و التمازج الحضاري في أزهى و أرقى صوره رغم أن الكثير من الجوانب لازالت غامضة فيه.

– دور الجزائريين في الدفاع عن دول الساحل من الغزو الأوروبي

إن القرنان السابع عشر والثامن عشر يمثلان فترة تدهور اقتصادي بالنسبة للمناطق المسيطرة في وسط النيجر وأدى سقوط مملكة سنغي على يد السعديين إلى انهيار تجارة الصحراء بين المغرب والسودان الغربي وساعد في تنشيط تجارة الساحل مع الأوربيين كبديل للطرق الصحراوية مع المغرب[20]، كما أن هذه الفترة شهدت تحول الأفارقة من تجارة الذهب و تعدينه إلى انتشار تجارة الرقيق مع الأوروبيين عبر السواحل الغربية منذ1701[21]، وقد كان هذا التحول نظرا لعدة عوامل كان أهمها حاجة الأوربيين للعبيد من أجل العمل في مزارع المستعمرات الجديدة بأمريكا اللاتينية، وهو ما ساهم في انتشار ظاهرة السطو و الغارات عبر الطرق الإفريقية مما جعل تجارة الذهب غير مأمونة.

و في ظل هذه الظروف كانت السفن الأوروبية تعبر المحيط الأطلسي عبر الجانب الساحلي الغربي لإفريقيا، وهو ما كان محط نظر الأسطول الجزائري ، إن المناوشات الجزائرية للسفن الأوروبية خارج البحر الأبيض المتوسط ساهمت في تخفيف الضغط على السواحل الإفريقية[22]، وهنا لا يمكن الجزم أن الأسطول العثماني في الجزائر قد تعمد إنقاذ الأفارقة، لكنه ساهم في صد توجههم سواء من حيث يدري أو لا يدري، خاصة عند تحالفه مع بحارة مدينة سلا عندما اضطربت الأوضاع في المغرب بعد وفاة منصور الذهبي سنة 1603، ودخول أبنائه الثلاثة المأمون و أبو العباس و زيدان في صراع على الحكم نجم عنه استحواذ زيدان على حكم فاس، وقد كان الأندلسيون في ذلك يشكلون قوة بحرية عند استقرارهم بسلا حيث ربطتهم بالجزائر علاقة طيبة و تعاون بحري في الهجوم على الشواطئ الأوروبية[23].ومنذ ذلك الحين و حتى منتصف القرن الثامن عشر كان الاسطول الجزائري يشكل حاجزا مهما لتجارة الأوربيين في السواحل الغربية للسودان الغربي[24] غير أن الضعف بدأ يدب في جهود الأسطول وتسارعت عمليات نقل العبيد حتى بدايات القرن التاسع عشر حيث قتل الرايس حميدو في مواجهة مع السفن الأمريكية سنة1812 .

وقد كان التواجد السوداني غير بعيد عن الأحداث السياسية في المغرب العربي حيث كانو مساهمين في تشكيل أحداثه عن طريق تواجدهم في الجيوش و مشاركتهم في الأحلاف و القضاء على التمردات، ومن ذلك انضمامهم لجيش أبو محلي المرابط عندما جهز جيشه في منطقة الساورة بعد أن سلمت منطقة العرائش للاسبان واتجه إلى فاس للقضاء على أميرها زيدان ، كما أن أهل السودان الغربي قد ساهموا كقوة فعلية في هذه الأحلاف فقد استفادوا من هذه التجارب، وذلك من عدة جوانب ومنها إعطاء صور لأهل الصحراء عن الأوروبيين قبل أن يتواجدوا بها لذلك فإننا نجد أن القبائل الصحراوية كانت تبغض الأوربيين بغضا شديدا لما وصلهم من أخبار عن ممارستهم اللاإنسانية في سواحل السودان الغربي، وقد ساهم انتشار هذه الأفكار في تشكيل الحاجز البري للأوروبيين الذين يرغبون في اختراق الصحراء، سواء كانوا جنودا أو مستكشفين أو خبراء إلا نادرا، وقد بقي المجال البحري المناص الوحيد للأوروبيين الذين أخذوا في عمليات قنص العبيد و اختطاف الأطفال منذ القرن الخامس عشر باسم التنصير[25]

وبناءا على ذلك المنظور الصحراوي للأوروبيين كان كثيرا ممن يعبر للصحراء يلقى حتفه فيها وهو ما تشير إليه تلميحات و تصريحات الرحالة وفي ذلك يخبر الطبيب مانجو بارك صاحب رحلة تتبع نهر النيجر سنة 1795بقوله:<وبعد أن قضيت في غامبيا

وقتا مع الدكتور ليدلي الذي كان يدرس لغة الماندنجو ويجمع معلومات عن الأجناس التي تسكن هذه الأنحاء غادرت بيسانيا لإكمال رحلتي الخطرة>[26]، ووصف رحلته بالخطرة كان مقصودا وهو ما تشير له عدة إشارات في رحلته عن مدى بغض السكان للأوروبيين، رغم أنهم يأتون غالبا برفقة بعض الأهالي خاصة من العبيد الذين عملوا في أمريكا اللاتينية كما فعل صاحب هذه الرحلة أو الطبيب الذي جاء مع عبد الله الفوتي بعد رحلة إسترقاقه في أمريكا و أوروبا حيث قتل هذا الطبيب في الصحراء الجزائرية، ولعل معرفة أهالي الصحراء بالخطر المسيحي المرادف للتطبيب جعلهم يعرضون حتى عن الأطباء فلا شك عندهم أن الطبيب المسيحي هو مبشر بالدرجة الأولى، وبالفعل فإن التصريحات الأوروبية قد دلت على هذا فهذا س أ موريسون يكتب في مجلة العالم الاسلامي التنصيرية : <<نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المرضى الخارجين في المستشفيات أن نأتي بهم بالمعرفة المنقذة وهي معرفة ربنا يسوع..>>كما أضافت ايرا هاريس في حديثها مع الطبيب المنصر قائلة :<<يجب أن تنتهز الفرص لتصل لآذان المسلمين و قلوبهم فتكرز لهم الانجيل إياك ان تضيع التطبيب من المستوصفات و المستشفيات فإنه أثمن تلك الفرص ...>>[27]

وقد لعبت منطقة توات دورا بارزا في صد العدوان الأوروبي من خلال مراكزها العلمية و العلاقات العلمية و المراسلات من خلال اصدار العديد من الفتاوى، وذلك منذ القرن القرن السادس عشر حيث قام الإمام عبد الكريم المغيلي في محاوراته للملوك بتوضيح السياسة التي يجب أن تؤسس عليها الدولة كما كان في حواره مع ملك كانو محمد بن يعقوب رمفا وكذلك في رسالته للحاج محمد أسكيا سنة 1502[28]واستمرت الفتاوى والصلات منذ ذلك الحين من العلماء في توات إلى علماء و حكام افريقيا الغربية ولعل أبرز الفتوى التي تقضي بتحريم الإغارة و استرقاق الأحرار من المسلمين، وقد عمل عثمان فودي بعد أزيد من قرن على صدور هذه الفتوى على إعادة إحيائها و تكريسها، كما استمر بها ابنه محمد بلو .

وهنا نشير إلى أن التواصل التجاري قد ساهم في بدرجة كبيرة في نقل الحركة الصوفية من الجزائر إلى أفريقيا ولعل قيام دولتين على أساس ديني وهما الدولة التيجانية في افريقيا و امبراطورية الفولاني القادرية هما اكبر دليل عن الأثر الكبير لهذا التواصل التجاري.

الخاتمة:

إن التجارة كرافد من روافد الإقتصاد بين سكان الشمال الإفريقي و دول الساحل قد عرفت منذ أقدم العصور تطورات عديدة ومهمة ساهمت في نقل الحضارة بين الضفتين في كلا الإتجاهين و قد أنبتت روابط علمية و ثقافية متينة بين ضفتي الصحراء وكان لها أثر بالغ في تعزيز الروابط الإجتماعية والسياسية، وهو ما ظهر في شكل عمليات دفاع و مشاركات في تأمين الحياة في إفريقيا .

إن شعور الجزائرين بامتدادهم الإفريقي طوال القرون الأربعة الماضية لم يكن سوى نتيجة التراكم التاريخي للعلاقات و الصلات التجارية و التي كانت تقام على امتداد جغرافي مستمر.

لقد عبرت التجارة بين الجزائر و افريقيا في ما وراء الصحراء عن فعاليتها في تحقيق الدعوة للإسلام و تثبيت اللغة العربية، كما ساهمت في تشكل المظاهر العمرانية و الجمالية، و هي دلالة على فاعلية هؤلاء التجار في هذه المنطقة، وهو تحدي واضح للنظريات الغربية التي تشكك في إسلام الأفارقة و تطعن في طرق إنتشار الإسلام .

إنه من المؤكد أن هذا التواصل قد ساهم في تحقيق نمو إجتماعي و تمازج ثقافي نتج عنه نشأة دول تأثرت بالفكر الشمالي و ثقافته كما ساهمت هذه الحركة في انتقال المذاهب و العادات و التقاليد و الأعراف و التي تعبر عن أصالة العلاقة و امتدادها الطبيعي و الأخوي بين المجتمعين.

إن العلاقات التجارية بين الجزائر و دول الساحل تشكل جزءا كبيرا من تاريخنا الثقافي و الحضاري و هو بلا شك يتضمن العديد من المحاور الاقتصادية و الثقافية و الإجتماعية ، ورغم قلة الدراسات في هذا الجانب إلا أنه لابد من التأكيد على ضرورة الإهتمام بها من قبل الباحثين.

[1] جوان جوزيف: الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء، تر مختار السويفي، دار الكتاب اللبناني،بيروت،ص30

[2] مارك كورلانسكي:الملح تاريخ عالمي،ط1،دار الساقي،بيروت لبنان،ص40

[3] عباس عبد الكريم : الصلات التجارية بين المغرب و السودان الغربي، مجلة كلية التربية الأساسية،جامعة بابل،العدد 4،أيلول2010،ص47

[4] جوان جوزيف: مرجع سابق،ص48

[5] الهادي مبروك الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ماوراء الصحراء من القرن15-18،ط1،الدار المصرية اللبنانية للكتاب،1999، القاهرة،ص22

[6] مرمول كربخال :إفريقيا،ترمحمد حجي و آخرون،ج2،ط1، دار نشر المعرفة، الرباط،1989

[7] محمد العربي الزبيري:التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830، ب ط، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1972،ص162

[8]محمد العربي زبيري: مرجع سابق،ص163

[9] جميلة معاشي :الانكشارية و المجتمع ببايليك قسنطينة، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة،إشراف كمال فيلالي، السنة 2007-2008،ص195

[10]محمد العربي زبيري: مرجع سابق،ص 169

[11]محمد عبد اللطيف: تمبكتو أسطورة التاريخ، جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، ط1،2001،بنغازي،ص6

[12]محمد العربي زبيري: مرجع سابق، ص 169

[13]ب.س لويد :افريقيا في عصر التحول الاجتماعي، تر شوقي جلال،سلسلة عالم المعرفة، جانفي 1978،ص 28

[14]عباس عبد الكريم: مرجع سابق،ص 54

[15] تشير الإحصائيات لوجود الآلاف من المخطوطات بالخط العربي في غينيا و مالي

[16]محمد أحمد لوح : التعليم العام و مناهجهالسنغال انموذجا،عميد معهد الدراسات الافريقية في السنغال،27-2009/04/28 نيامي النيجر

[17]محمد أحمد لوح: المرجع السابق، ص10

[18]دنيس بولم : الحضارات الإفريقية،تر علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت، 1974،ص73

[19] أحمد الشكري : الإسلام و المجتمع السوداني إمبراطورية مالي،ط1، المجمع الثقافي،أبو ضبي،1999،ص90

[20]عباس عبد الكريم: مرجع سابق،ص 50

[21] والتر رودوني : أوروبا و التخلف في افريقيا، تر أحمد القصير، ط1،سلسلة الكتب الثقافية عالم المعرفة، ديسمبر 1998،الكويت،ص125

[22]ج ب وولف: الجزائر واوروبا، تر أبو القاسم سعد الله،ط2، دار الغرب الإسلامي ،1996،بيروت،ص187

[23]عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية،تر محمود علي عامر،ط1، دار النهضة العربية، بيروت،1989،ص 349

[24]فاروق عثمان اباضة: أثر تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصروعالم البحر المتوسطأثثناء القرن 16،ط2،دار المعارف،ب ت، القاهرة،ص98

[25]عبد العزيز الكحلوت: التنصير و الاستعمار في افريقيا السوداء،ط2، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس،1992،ص53

[26] س.هوارد: أشهر الرحلات لغرب افريقيا، ج2،تر عبد الرحمن عبد الله الشيخ،ط1،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ص83

[27]عبد العزيز كحلوت: مرجع سابق،ص87

[28]أحمد ابا الصافي جعفري: من تاريخ توات أبحاث في التراث،مجموع مقالات ، ب ط ، ب ن،ص12